المقال الافتتاحي

نظرية انهيار السياق بين الأمس واليوم

أ.د. فاطمة الزهراء السيد

أستاذ الصحافة بكلية الإعلام - جامعة القاهرة

تعد نظرية انهيار السياق إحدى أكثر نظريات الإعلام المظلومة بحثيًا من قبل دارسي الاتصال العرب، بالرغم مما تطرحه من أطر تفسيرية ثرية تتيح مساحات أوسع لفهم الظاهرة الاتصالية لاسيما في عصر شبكات التواصل الاجتماعي.

تعود أصول النظرية Context Collapse لإيرفنج جوفمان (1922-1982) Erving Goffman، وتشير إليها كتب النظريات باعتبارها اقترابا تفسيريًا Interpretive Approach أكثر مما تحمله من طبيعة إمبريقية. ولعل هذا هو السبب الرئيس في كونها أقل تطبيقًا في البحوث العربية نظرًا للاهتمام المنصب في الأساس على البحوث الكمية. وجوفمان هو عالم اجتماع كندي المولد وأميركي الجنسية، ويُصنف كأكثر علماء الاجتماع النفسي الأميركيين تأثيرًا في القرن العشرين، والسادس على مستوى العالم من حيث كثافة الاقتتباس من أعماله الفكرية.

الفرضية المركزية للنظرية تدَعى أن لكل رسالة اتصالية سياقها الخاص الذي أُنتجت فيه، وجمهورها الخاص الذي وُجهت له. وأنه لا يمكن فهم الرسالة بشكل صحيح إلا من خلال هذا السياق وهذا الجمهور. أما إذا تُدوِلت الرسالة خارج سياقها ومن غير جمهورها، فالأرجح أن يُساء فهمها، الأمر الذي قد يسبب حرجًا لمنتجها، أو قد تكون غامضة، وفي أفضل الظروف تصبح غير ذات معنى. وعلى الرغم من نشأة النظرية في سياق تطغى فيه وسائل الاتصال الجماهيري – الراديو والتليفزيون على وجه التحديد – حيث اهتم جوفمان بنتائج وصول الرسائل الاتصالية لجمهور غير مقصود. إلا أن ما تطرحه من أبعاد تفسيرية لنتائج تداول الرسائل الاتصالية عبر منصات التواصل الاجتماعي يجعلها إطارًا نظريًا معتبرًا وجديرًا بالاهتمام في وقتنا هذا.

ودونما إشارة إلى مِثال بعينه، يمكن استخدام هذه النظرية في تحليل كثير من سلوكيات مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي، والخروج بتفسيرات أعمق تمكننا من تحقيق فهم أشمل لأسباب إنشاء أو اختفاء منشورات بعينها. فصاحب المنشور الذي يشارك متابعيه موضوعًا ما يظنه عاديًا، يلتمس به دعمهم و استحسانهم، وقد يعبر فيه عن رأيه، أو يغلب عليه الظن بأن مُتابعيه وأصدقائه فقط هم من سيهتمون برسالته، ويشاركونها فيما بينهم، قد يُضطر بعد فترة من الزمن – ربما تكون قصيرة للغاية - إلى إلغاء منشوره كأن لم يكن، أو أن يتقدم باعتذار أو استدراك لما ورد في منشوره، والسبب هو وصوله إلى جمهور لم يكن مقصودًا ولا في الحسبان ردة فعله.

وتشتمل النظرية في ذاتها على الكثير من المفاهيم الشيقة التي تستحق الاهتمام، بالإضافة إلى ما أثرى به باحثو الاتصال اللاحقين أمثال (Michael Wesch 2008) و(Dana Boyd 2009) إطارها التفسيري من مفاهيم أخرى لا تقل في اهميتها عن الأطروحات المركزية للنظرية. ومن هذه المفاهيم: «الحدود الغائمة»، وهو يشير إلى أن الرسالة التي تُمكنها تكنولوجيا الاتصال من الوصول غير المقصود لجماهير غير مستهدفة من مُنتِجها، تنتفى عنها الحدود بين الخاص والعام. وهذا الانتفاء هو أحد أوجه انهيار السياق الذي قصده جوفمان. وهو ما يجعل محتوى الرسالة غامضًا أو غير ذي معنى. وقد أخذ باحثو الاتصال هذا المعنى إلى نطاق أبعد، باعتباره تفسيرًا لحالة الاغتراب التي يُعايشها بعض الأفراد داخل مجتمعاتهم الأصلية أوالمُضيفة نظرًا لعجزهم عن فهم سياقات الرسائل الاتصالية التي تدور حولهم. وتكون النتيجة إما فهمًا خاطئًا قد يترتب عليه سلوك خاطيء، أو انكفاء على الذات خشية الاندماج في واقع غير مفهوم.

وفي مقابل مفهوم الذات المنكفئة، تطرح النظرية مفهوم الهوية متعددة الأوجه، حيث تفترض أن الذات الواحدة قد تتجلى بعدد من الهويات حسب المواقف التي تتعرض لها. وتسمح حالة انهيار السياق بمرونة أكبر في انتقال الذات بين الهويات المختلفة. ويصبح الانتقال مطلوبًا عند إدراك الذات للغاية المقصودة من الموقف. وهناك كذلك مفهوم أداء الذات على المسرح وأدائها خلف الكواليس Offstage and Backstage performance. حيث يتسم أداء الذات المسرحي بالصورة التي تُفضل أن يعرفها به الآخرون – مثال صورة البروفايل على المنصات الاجتماعية – كما يكون في الغالب مُعدًا له مسبقًا ومقصودًا لترسيخ معالم معينة لهذه الصورة في أذهان الجمهور. أما أداء الذات خلف الكواليس فهو ما يمثل نطاقها الخاص الذي لاتريد ولا تسمح للآخرين بالاطلاع عليه. وكثيرًا ما حدثت تسريبات غير مقصودة من خلف الكواليس إلى المسرح فسببت لصاحبها إحراجًا لم يكن من السهل تجاوزه.

ويصنف ناثان جورجينسون Nathan Jurgenson انهيار السياق بكونه إما انهيار لسياق تواطؤي Context Collusion أو انهيار لسياق تصادمي Context Collision، ويحدث النوع الأول بشكل مقصود، مثال أن يشارك أحدهم منشورًا يمثل دعوة أو نداء للقيام بعمل ما، وهو يقصد أن يصل منشوره لأبعد نطاق ممكن، بغض النظر عن السياقات المختلفة التي قد يسبح من خلالها داخل الشبكات، وكثيرًا ما يرتبط هذا النوع من المنشورات بوسوم معينة (هاشتاجات) لتسهيل تداوله والإشارة لمحتواه. والنوع الثاني يحدث بشكل غير مقصود، كأن ينشر مستخدم ما بيانات تخص شركته وليس مخولًا له القيام بذلك، وهو ما قد يتسبب بالإضرار بسمعتها، أو أن تنشر شركة ما بيانات خاصة بعملائها دون الحصول على إذن مسبق منهم، وهو ما يعد انتهاكًا لخصوصيتهم.

وقُدر لي في الاونة الأخيرة أن أجري تحليلًا نظريًا لرواية «ذات» للكاتب المصري المبدع صنع الله إبراهيم. على أن أقارب بين الخطوط البلاغية داخل الرواية كعمل أدبي، والخطوط الاتصالية داخل المجتمع. وما يُحتمل أن يكون بينهما من تباين أو مطابقة يمكنها أن تشرح ما تستطيع الأعمال الأدبية أن تضيفه لحقل نظريات الاتصال. وقد لاحظت أن الاقتراب النظري لمفهوم انهيار السياق له قدرة تفسيرية عالية للربط المنطقي بين الأحداث التي عايشتها «ذات» وشكلت سماتها النفسية في مواجهة من حولها بدءًا من زوجها «عبد المجيد» ومرورًا بجاراتها وصديقاتها وزميلاتها في العمل، وانتهاءًا بالشخصيات العارضة التي ظهرت في حياتها في مناسبات مختلفة. حيث أدى انهيار السياق في حالة ذات إلى عدم قدرتها على فهم ما يدور من حولها من أحداث، الأمر الذي جعلها منكفئة على نفسها، مضطرة لتحمل ما يجرى معها وما يدور حولها دون إفصاح عن مشاعرها الحقيقية، ولا تجد ملاذًا يحتويها تترك فيه العنان لمشاعرها دون قيود سوى داخل «المرحاض».

ونظرًا لآلية المزاوجة بين الفصول السردية والفصول الإخبارية التي اعتمدها المؤلف، كان استخلاص التأثير المحتمل للرسائل الاتصالية في وسائل الاتصال على حياة ذات ممكنًا. إلا أن السياق الذي أراه قد تعرض للانهيار في رواية ذات، والذي أدى لأن تفقد الرسائل الاتصالية معانيها وأن يترسخ لدى ذات شعور بالتهميش والياس هو الإطار الأخلاقي والقيمي الذي نشأت عليه وآمنت به، إلا أنه أصبح سرابًا بفعل التحولات السياسية والاجتماعية التي حدثت في المجتمع خلال فترة قصيرة نسبيًا. ومن ثم أصبحت القصص الإخبارية التي تنشرها وسائل الإعلام، والتي تحمل قدرًا لا بأس به من التناقض بين تصريحات المسئولين وحياة المواطنين على أرض الواقع، دليلًا قاطعًا على تداعي السياقين القيمي والأخلاقي في المجتمع. وهو الأمر الذي حول «ذات» والتي تمثل حال السواد العظم من الشعب إلى مجرد متفرج على هامش الحياة.

أعتقد أن تجربة استخلاص الخطوط الاتصالية من الأعمال الأدبية، باعتبارها إنتاجًا فكريًا يعكس نبض المجتمعات واستجاباتهم لما يدور حولهم، جديرة بالاهتمام لما تضيفه من فهم أعمق للطبيعة المتشابكة للعلاقات بين أفراد المجتمع وعمل وسائل الاتصال في فترة زمنية معينة.